## كلمة التحرير

# دروس من مسيرة إقبال الإصلاحية

**هيئة التحرير**

يمثّل المفكر والفيلسوف والأديب المسلم محمد إقبال عَلَماً مهماً من أعلام التجديد والإصلاح الفكري الإسلامي الحديث. وغدت نتاجاته الفكرية والفلسفية والأدبية مرجعيات مهمة في تأصيل الذات والمحافظة على الهوية، وفي التعبير عن شخصية المسلم في ظل المواجهات الحضارية التي عاشها. وسيكون من الوفاء لجهود الإصلاح الفكري الحديث والمعاصر، إحياء ذكرى إقبال بعد ما يزيد على ثلاثة أرباع القرن من وفاته، بطريقة علمية تعرض وتحلل وتنقد الخطاب الإصلاحي الفكري لمحمد إقبال الذي أسهم في بلورة الهوية والتأسيس لفكرة الدولة. لا سيما أن جيلاً كاملاً من العرب خاصة في منتصف القرن الماضي كان يتغنى بأشعار إقبال التي يتحدث فيها عن معاني الأمة والعزة والمجد، ويحث فيها على الاعتزاز بالهوية الإسلامية.

إن تفحّص مسيرة إقبال العلمية والعملية تفرض على العاملين في الحقل الفكري والثقافي والدعوي خاصة، والعمل الإسلامي عامة أن يستلهموا بعض الدروس من أجل بناء مسيرة إصلاحية قادرة على إعادة الثقة في "الذات" المسلمة، وبلورة هوية إسلامية متسمة بالوحدة والتنوع. وما أحوجنا اليوم إلى قراءة مثل هذه المشاريع التجديدية الإصلاحية، لا سيما أن الهوية الإسلامية تواجه خطرين كبيرين: أولهما متصل بدائرة المختلف (دينياً وفكرياً وثقافيا وجغرافياً)، وهو يحاول طمس هذه الهوية من خلال تمييعها بإعطائها فرصة ذهبية لتقليده في تجلياته الثقافية والاجتماعية، وما البرامج الإعلامية التي يصنعها الغرب وينقلها إلى العالم الإسلامي ليتلقفها ويغلفها بغلاف عربي إسلامي دون تفريغه من مضمونه الغربي إلا مثال صارخ على هذا التقليد الأعمى الذي سيؤدي –منطقاً وشرطاً موضوعياً– إلى تأرجح في الهوية، ومن ثم مسخها. أما الخطر الثاني؛ فهو متصل بدائرة الأنا والذات والمؤتلف؛ إذ لن يكابد أيُّ مراقب لما يحدث في العالم عناء استكشاف هويات متعددة للإسلام، وللأسف فهي ليست منطلقة من قاعدة: تعدد واختلاف التنوع، الذي شكّل إرثاً حضارياً إيجابياً أسهم بنهوض الإنسانية، بل هو تعدد واختلاف التضاد، أدّى إلى تشرذم الهوية الإسلامية،

وإلى سكونها، وعدم فاعليتها الحضارية، وانتقلت هذه الذات من الحديث عن الجوهر في تشكيل الشخصية الإسلامية لتمارس دورها في البناء والعطاء، إلى الحديث عن المظهر، الذي غدا عاملاً في التعبير عن هوية المسلم.

وبناء عليه فإن حديثنا عن إقبال هو حديث متجدد عن قدرة العقل المسلم في تحديد أولوياته في جميع المجالات والدوائر؛ دائرة الفرد والمجتمع والأمة. ولعل أهم الدروس المستفادة من تجربة إقبال نوردها بشكل مقتضب فيما يأتي:

**الدرس الأول:** "يا بني اقرَأ القرآن وكأنه أُنزل عليك"؛ لم تكن جملة شاعرية مقصودة لذاتها؛ فيها من الموسيقى والوجدان والبلاغة والمواءمة بين اللفظ والمعنى —وإن كانت كذلك–، ولم يشأ ذاك الوالد أن يستفز طاقات الفهم والإدراك لدى فلذة كبده رغبةً في تأسيس مشيخة أو نحلة أو فرقة في مجتمع تنوعت فيه الديانات والفرق والأفكار، ولم تكن عبارةً تحمل بين طياتها حلماً في تقمّص دور نبي جديد يتماهى مع الدور الذي قام به أحد سلاطين المغول الذين حكموا الهند، وهو جلال الدين أكبر، الذي أراد تأسيس دين جديد. بل هو خطاب تجديدي في فهم مقاصد القرآن، وهي جملة تحريضية لإعادة فهم الإسلام في مقاصده ومناهجه ومنظومته، وهي دعوة واضحة جلية لتفعيل الخطاب القرآني في الزمان والمكان وفي حدود السقف المعرفي للإنسان المسلم. لقد وعى إقبال مكنونات هذه العبارة، فكان يقرأ القرآن قراءة تكاملية؛ قراءةً ساعدته في الربط بين النص المسطور والكون المنظور والواقع والفطرة. وما من شك في أن لهذا التعامل مع القرآن الكريم بشكل خاص ومع الثقافة القرآنية بشكل عام دوراً مهماً في تشكيل عقلية إقبال، وساعدته هذه الثقافة على الاستنباط والاستدلال والمحاججة، وعلى ربط العلم بالعمل، وعلى اكتشاف روح الثقافة الإسلامية، ومميزاتها عن غيرها من الثقافات لا سيما اليونانية والمادية الغربية، وعلى هضم الثقافة الغربية ومحاورتها ونقدها بناءً على مرجعية ثابتة ويقينية. لذلك وجّه إقبال خطاباً قاسياً إلى المسلم الساكن المتلقي بغير وعي، فهو يقول: "إنك أيها المسلم لا تزال أسيراً للمُتزَعِّمين للدين، والمحتكرين للعلم، ولا تَستمِدُّ حياتك من حِكمة القرآن رأساً، إن الكتاب الذي هو مصدر حياتك، ومنبع قوتك، لا اتّصال لك به إلا إذا حضرتك الوفاة، فَتُقْرَأُ عليك سورة "يس" لتموت بسهولة، فوا عجَباً! قد أصبح الكتاب الذي أُنْزل ليمنحك القوة والحياة، يُتلى الآن لتموت براحة وسهولة." وهذا درسٌ إقبالي مهم في التأسيس لأية حركة تجديدية أو إصلاحية إسلامية؛ أن تنطلق رؤية هذه الحركة من المرجعية التأسيسية للفكر

الإسلامي، المتمثلة في النص المهيمن والمؤسس وهو القرآن الكريم، وأن يستشعر المسلم بـأن هذا النص المقدس ممتدّ في الزمان والمكان، وبأن له خصوصية معرفية لا تتسق ومشـاريع: التأنيس والتعقيل والتأريخ.

**الدرس الثاني**: شعرَ إقبال بأن ثمة أهمية كبيرة للدين في حياة المجتمعات عامة وفي حياة المسلم خاصة، لا سيما بعد سيطرة الأفكار المادية على حياة المجتمعات. وأن الدين هو القادر على إعداد المسلم أخلاقياً لتحمّل مسؤولياته الحضارية. ولعل المتابع للمحاورات الفكريـة والثقافية المنتشرة على وسائط التواصل الاجتماعي، يلمس استهدافاً ممنهجاً للدين وللثقافـة الدينية، وغدا التطرق إليه من باب المراجعات النقدية. وتجاوزت بعض الأصوات والأقـلام الحديث عن خطر دين بعينه، إلى خطر الدين بوصفه منظومة فكرية وعقدية متحيزة، لا تتيح مجالاً للفرد بأن يمارس الحرية المطلقة التي بنت عليها المجتمعات "المتحررة" منظومتها الثقافيـة والفكرية والمجتمعية والقانونية. إن دراستنا لمنهج إقبال في بلورته لتصوّر إسلامي حضـاري للدين في ظل ما تعانيه البشرية من تغوّل للمادية، وانتشار متسارع وغير منطقي لتجلياتها في المجتمعات قاطبة، يجعلنا نمارس دورنا الحقيقي في إنقاذ البشرية، وفي إحداث التـوازن بـين الروحية والمادية، وما بين حاجات الروح وحاجات الجسد. ولعل ثمة حاجـة ماسّـة إلى تفحّص مفهوم الدين والإيمان عند إقبال، وتلمّس مقومات النزعة الروحية التي تمثّلها إقبال، واستقراء تنظيرات إقبال وكتاباته وتطبيقاته في دور الدين في تكوين شخصية المسلم ومن ثم نهضة الأمّة مقابل مادية الغرب، وهو الذي قال: "إن الإنسانية تحتاج اليوم إلى ثلاثة أمـور: تأويل الكون تأويلاً روحياً، وتحرير روح الفرد، ووضع مبادئ أساسية ذات أهميـة عالميـة توجه تطور المجتمع الإنساني على أساس روحي." ولعلنا كـذلك نتقصّـى رأي إقبـال في التوحيد، الذي عدّه أساس النهوض الحضاري، والبناء الشامخ أمام التيارات والأفكار الغربية المادية، وظهر ذلك جلياً في كتاباته ودووانيه الشعرية، فما هي تجليات التوحيد في العطـاء الفكري عند إقبال؟ وما هي مضامينه كما أبان عنها إقبال؟ وكيف أثّر التوحيـد في تميّـز الشخصية الإسلامية، وإنجازات الحضارة الإسلامية؟

**الدرس الثالث**: كان إقبال من مدرسة المواءمة بين الأصـالة والمعاصـرة، والتـراث والحداثة، والدين والعلم. ورأى أن بإمكان العالم الإسلامي الانخراط في العالم الحديث وإتمام التجديد بالجمع بين التراث والمعرفة المعاصرة. ووعى بأن هذا العمل مهمة حضارية للمسلم المعاصر؛ إذ حددها بقوله: "ولم يبق أمامنا من سبيل سوى أن نتناول المعرفة العصرية بنزعـة

من الإجلال، وفي روح من الاستقلال، والبعد عن الهوى. وأن نقدّر تعاليم الإسلام في ضوء هذه المعرفة، ولو أدّى بنا ذلك إلى مخالفة المتقدمين، وهذا الذي أعتزم فعله." وهذه دعوة إلى قراءة نقدية لموقف إقبال من التراث ومن الحداثة، وإلى التساؤل عن مدى نجاح إقبال في تحقيق متطلبات الإسلام الحضاري، وعن الأسس الفكرية والفلسفية المطلوب تجديدها في التفكير الديني، والمعالم العامة لهذا التجديد، والمعيقات التي تحول دون تحقيق فاعلية هذا التجديد.

**الدرس الرابع**: يعد مفهوم "إعادة البناء" مفهوماً مركزياً في فكر محمد إقبال، ويفترض هذا المفهوم أن الإسلام يتمتع بقوة حيوية يجب استعادتها من خلال عملية الاجتهاد والتجديد، التي تجعل المجدد ينظر إلى الأمام والخلف وإلى الداخل والخارج، حتى يبقى للإسلام مكانه المناسب في مستقبل العالم. وينظر إقبال إلى أن إعادة البناء سوف تتناول المفاهيم الكبرى الثلاثة في الإسلام وهي: الله والذات والأمة. فكيف يمكن لحركة الإصلاح الإسلامي أن تفيد من جهود إقبال في بلورة هذا المفهوم المركزي، الذي يمنح التفكير الإسلامي حيوية كبيرة في التعامل مع النص والواقع، ومع الثابت والمتغير، ويُبقي الحضور الإسلامي حيّاً؛ زماناً ومكاناً، لا سيما إذا رُبط هذا المفهوم بمبدأ الحركة عند إقبال، المتصل بشكل جذري بالاجتهاد؛ إذ يكون التأكيد على العلاقة بين الإسلام ومتطلبات العصر. ولعل تركيز إقبال على الآليات والاستراتيجيات الفاعلة، التي تساعد العقل المسلم على تفعيل النصوص الدينية لتمكينه من أداء دوره الاستخلافي في هذه الحياة، هو محاولة قويمة وعميقة لإثبات فاعلية النص، وكمون كنوزه وعجائبه التي لا تنقضي، وهي بحاجة إلى نقلها من عالم القوة إلى عالم الفعل. وهذا درس مهم في تدبّر الأصول التأسيسية، ومحاورة ما أنتجه التراث واستيعابه، والإفادة من اللحظة الراهنة، ومن ثمّ التأسيس لمنطلق حضاري جديد متكئ على بنية معرفية أصيلة. وهذه مهمة لا تقع على عاتق فرد أو جماعة بعينها، بل هو واجب الأمة؛ إذ كشف لنا إقبال عن حاجة الأمة إلى اجتهاد جديد يأخذ بعين الاعتبار التنوّع الفكري والمذهبي، لذلك دعا إلى الاجتهاد الجماعي. لذا من الحكمة ان نتفحّص معالم هذا الاجتهاد عند إقبال، وضرورته الحضارية في سياق الحديث عن الذات والمختلف، ومرجعياته وأسسه. لا سيما بعد تعدد الاجتهادات التي أدت إلى تشرذم الأمة وقطع عرى التواصل بين أفرادها.

**الدرس الخامس**: درس إقبال في ظل منظومة تعليمية وفكرية غربية تختلف كُلياً في بنائها المعرفي عن النظام المعرفي الإسلامي، من حيث المصدر والرؤية والأداة والغاية والبِنية.

وحاول إقبال في أطروحاته الجامعية خاصة أن يبلور التصوّر الإسلامي للرؤية الكلية تجاه الذات والمختلف، لا سيما بعد استيعابه الكبير للبناء الثقافي والفكري والفلسفي والمعرفي للفكر الغربي، فحاور العقل الغربي ونقده في مناسبات عديدة، وقوّض بعض أسسه الفلسفية والفكرية، ناقداً في الوقت ذاته تمسّك بعض المفكرين المسلمين بالنظام المعرفي الغربي وبنظرياته التي لا تنسجم مع الفكر الإسلامي. فما هي المعالم العامة والأسس التي وضعها إقبال للنموذج المعرفي الإسلامي؟ وما هي عناصره وخصائصه وتمثلاته؟ وما هي الأسس الفكرية والمعرفية الحضارية الغربية التي عمل إقبال على نقدها؟ تتيح هذه التساؤلات مساحة مناسبة لبحث مكانة التعليم ومناهجه في برامج الحركات الإصلاحية، لا سيما تلك الحركات التي تعي أهمية بناء الفرد؛ فكرياً ووجدانياً وسلوكياً.

**الدرس الخامس:** مثّل إقبال منهجاً فكرياً عملياً أسهم في تثبيت هوية المسلمين في شبه القارة الهندية، وتوطين الإسلام في شكل دولة. وامتدّ هذا المنهج الإصلاحي خارج الهند وباكستان. وقد تزامن جهد إقبال الإصلاحي مع جهود إصلاحية أخرى في بقاع العالم الإسلامي. ولعلنا نجد نقاط ائتلاف واختلاف مع جهود المصلحين الآخرين. وثمة مقاربات معرفية بين منهج إقبال ومنهج المصلحين والمفكرين الآخرين مثل: الأفغاني وعبده والكوكبي ورشيد رضا والنورسي والفاروقي ومالك بن نبي والمسيري إلخ. وهذا يفرض على أي مشتغل في حقل الإصلاح أن يتبين معالم التقارب والتباعد بين جهود المصلحين السابقين على اختلاف مناهجهم وآلياتهم ومقاصدهم؛ فمخطئ من يظن بأن ثمة جماعة أو حركة بعينها هي الإسلام أو الحق المطلق، فثمة نسبية في القرب من الحقيقة. لذا علينا أن ننظر إلى ما حققته هذه الجهود، دون تقديس لما تمّ، بل الإفادة منها من أجل تطوير خطاب قادر على فتح بوابات العصر بهوية واضحة المعالم والأسس. فقد تعلّمنا من التجربة الإقبالية بأن عملية بناء الذات (وهي ممثلة في الصبر والعزيمة وكل صفات الإنسان الكامل وهي متصلة بالشخص ذاته)، تحتاج في الوقت نفسه إلى اتصالها وتعاونها مع الآخرين، وهو ما دعاه إقبال بـ "الهيئة الاجتماعية الإسلامية"، الذي يبلور تصوراً جماعياً للإصلاح. لذلك تجاوز خطاب إقبال حدود الجغرافيا والعرق؛ فهو خطاب قَلِق يسوده التوتر، والصفتان هنا إيجابيتان؛ فهما عاملان محفزان على الحرص في نشر الإسلام، وعدم السكونية في التعامل مع الأفكار القديمة والمستجدة.

ولعلنا نختم كلمتنا هذه بأبيات شعرية لإقبال يعبّر فيها عن مفهوم الانتماء إلى الأمة/الذات، فهو يقول:

أشواقنا نحو الحجازِ تطلّعت كحنينِ مغتربٍ إلى الأوطانِ
إنَّ الطيورَ وإنْ قصَصْتَ جناحَهَا تسمو بفطرتها إلى الطيرانِ
قيثارتي مكبوتةٌ ونشيدُها قدْ ملَّ من صمتٍ ومنْ كتمانِ
واللَحنُ في الأوتارِ يرجو عازفاً ليبوحَ من أسراره بمعانِ
والطُّورُ يرتقبُ التجلِّي صارخاً بهوى المشوقِ ولَهفةِ الحيْرانِ
ما بالُ أغصانِ الصَّنوبرِ قد نأَتْ عنها قَمَارِيْهَا بكلِّ مكانِ
وتعرِّتِ الأشجارُ منْ حُلل الرُّبا وطيورُها فرَّت إلى الوديانِ
يا ربِّ إلا بُلبُلاً لمْ ينتظرْ وحيَ الرَّبيعِ ولا صَبا نَيْسانِ
ألحانُهُ بحرٌ جرى مُتلاطماً فكأنَّه الحاكي عن الطُّوفانِ
ياليتَ قومي يسمعونَ شكايةً هي في ضميري صرخةُ الوجدانِ
إنَّ الجواهرَ حيَّرتْ مرآةَ هـ ذا القلبِ فهو على شفا البُركانِ
أَسْمِعْهُمُوا يا ربِّ ما ألْهَمتَني وأَعِدْ إليهِمْ يقظةَ الإيمانِ
وأَذِقهمُ الخمرَ القديمةَ إنَّها عينُ اليقينِ وكوثرُ الرَّضوانِ
أنا أعجميُّ الدَّنِّ لَكِنْ خمرتي صُنعُ الحِجازِ وكرْمِها الفَيْنانِ
إنْ كان لي نغمُ الهنودِ ولحنُهم لكنَّ هذا الصوتَ مِنْ عدنانِ

ويسرنا في مجلة إسلامية المعرفة: مجلة الفكر الإسلامي المعاصر أن نقدّم لقرائها ومتابعيها هذا العدد الخاص بمحمد إقبال، متفحصين فيه جهوده في الإصلاح والتجديد الفكري. وقد انتخبت المجلة عدداً من الأبحاث التي شاركت في مؤتمر "محمد إقبال وجهوده في الإصلاح والتجديد الفكري" الذي عقده المعهد العالمي للفكر الإسلامي والمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة "إيسيسكو" في الرباط/المغرب ٥-٦ ربيع الأول ١٤٣٧هـ الموافق ١٧-١٨ كانون أول (ديسمبر) ٢٠١٥. ويأتي هذا العدد وفاء لحركات الإصلاح وأعلامها بشكل عام، ومحمد إقبال بشكل خاص. ويَعِد المعهد العالمي للفكر الإسلامي زملاءه وأعضاءه ومتابعيه بأن يُخرج أعمال المؤتمر العلمي في كتاب علمي محكّم بعد تحرير أبحاثه واستكمال محاوره؛ ليكون زاداً علمياً للمكتبة العربية والإسلامية.

والله ولي التوفيق